الأول والآخر

من أسماء الله الحُسنى الأول والآخر ، الأول والآخر اسمان من أسماء الله الحُسنى ، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ ، وقد أجاز بعض العلماء ذكرهما معاً الأول والآخر .

بعض العلماء أجاز أن يُذكر اسم الأول والآخر معاً ، كالنافع والضار وجمع بينهما أحد العلماء مضيفاً إليهما الظاهر والباطن ، لنا أن نقول الأول والآخر والظاهر والباطن معاً ، أربعة أسماء .

وكما هي العادة دائماً نبدأ بالمعنى اللغوي الدقيق من كلمة الأول ؛ فالمعنى الأول للأول : هو الذي يترتب عليه غيره ، شيء يُبنى على شيء ونتيجة تؤسس على مقدمة ، هذا المعنى الجامع ، التفاصيل : الأول المتقدم زمانه ، طبعاً ، شعبان ثم رمضان ثم شوال ، محرم ثم ذو القعدة ، الأول هو الذي يأتي أولاً زماناً يعني التقدم زماناً .

المعنى الثاني ؛ التقدم رتبةً ، فلان الأول على طلاب الصف ، فلان الأول في التجارة ، فلان الأول في الصناعة ، الأول في العلم ، هذا التقدم تقدم رتبي ومنه قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن : ١-٤] .

لا يُعقل أن يُعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق ، هذا التقديم تقديم رتبي وليس تقديماً زمنياً .

المعنى الثالث ، المتقدم مكاناً ، أنت في الطريق إلى حلب ، حمص قبل حماة ، وحماة قبل حلب ، فحمص أولاً وحماة ثانياً وحلب ثالثاً ، إذاً هناك تقدم زمني وتقدم مكاني وتقدم رتبي .

المعنى الرابع التقدم في الترتيب ، وهذا يُستخدم في الصناعة ترتيب المحرك أولاً ، ربطه بالعجلات ثانياً ، ربطه بالكهرباء ثالثاً ، إذاً هناك أولوية في الزمان ، أولوية في المكان ، أولوية في الترتيب ، أولوية في التربية ، هذه المعاني الأربع مستفادة من معنى الأول .

أما إذا قلنا ؛ الله هو الأول فلهذا معنى آخر ، معناه أن الله سبحانه وتعالى لم يسبقه في الوجود شيء ، لكن لا ينبغي أن تقول : زماناً ، لأن الزمن من خلق الله ، لم يسبقه في الوجود شيء هذا هو الذي ينبغي أن نقوله في شرح معنى اسم الله الأول .

هناك معنى آخر متعلّق بالله عز وجل ؛ الأول هو الذي لا يحتاج إلى غيره كل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً ، هذه المنضدة تحتاج إلى خشب ، إذاً ليست هي الأول ، الخشب يحتاج إلى أن ينبت ، إذاً ليس هو الأول ، النبات يحتاج إلى بذر ، ليس هو الأول ، البذر يحتاج إلى نبات يخرج منه ، النبات ليس هو الأول ، فكل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً .

فالمعنى الثاني إذاً : هو الشيء الذي لا يحتاج إلى غيره ، هذا معنى الأول بالنسبة لله عز وجل .

المعنى الثالث : الشيء المستغني بنفسه في وجوده ، لو أن شيئاً

يفتقر في استمرار وجوده إلى شيء آخر ليس أولاً ، المادة الأولية سبب استمراره ، مادام هناك شيء يعين على استمرار الوجود ، فهذا الشيء ليس أولاً المادة الأولية هي الأول ، فثلاث معانٍ مستفادة من اسم الله العظيم الأول هو أنه لم يسبق وجوده شيء ، والثاني لا يحتاج إلى غيره ، والثالث المستغني بنفسه ، فهذه الثلاثة تشكّل معنى الأول .

النبي عليه الصلاة والسلام قال : « **كان الله ولم يكن شيء غيره** » .

كان هنا فعل ماض تام ، كان الجو صاحياً ، ناقص ، كان الحديد فلزاً ، ناقص ، كان الجليد ماءً ، ناقص ، أما كان الله : فهو فعل تام ، إذاً هذه كان التامة الكاملة التي تحتاج إلى فاعل ، وتكون بمعنى وجد ، أما كان الناقصة فلا تعني حدوث عمل .

بالمناسبة ، هذه الورقة ، إذا مزقتها ، هذا التمزيق حدوث عمل الفعل التام يدل على حدوث عمل ، أما الفعل الناقص فلا يدل على حدوث عمل يدل على زمن فقط ، إذا قلت الجو صاح ، هذا تركيب اسمي ، إذا قلت كان الجو صاحياً ، ماذا أضفت ؟ المضي فقط ، كان الناقصة لا تفيد حدوث العمل ، تفيد مضي الزمن فقط ، الجو ممطر ، كان الجو ممطراً البارحة ، فكأن « كان » شدت هذا التركيب الاسمي إلى الماضي شداً ، أما إذا دلت على حدوث عمل فقد أصبحت كان التامة إعرابها فعل ماض تام ، تحتاج إلى فاعل مرفوع ، كان الله ، وجد الله ، الله لفظ الجلالة نائب فاعل ، طبعاً هناك أدلة كثيرة في كتاب الله .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

اتق الله حيثما كنت ، « حيثما وجدت » وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن .

النبي عليه الصلاة والسلام قال : كان الله ولم يكن شيء غيره[١] ، والحقيقة ، هذا الاسم العظيم ورد في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] .

من معاني هذا الاسم مهما أوغلت في النهاية تصل إلى الله ، الله وراء كل شيء ، سبب كل مسبب ، هو الأول والآخر ، أحياناً يقع حدث ما سببه ؟ سبب آخر مادي ، فما سبب هذا السبب ؟ سبب آخر مادي ، من مسبب الأسباب ؟ الله وهو الأول ، إذا تحركت نحو الوراء بسلسلة يجب قطعاً أن تنتهي إلى الله ، هو الأول .

إنسان حرك يديه ، كيف حركها ؟ لأنه حي ، من أعطاه الحياة ؟ الله جل جلاله ، إذاً هو الأول .

---

(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال : (اقبلوا البشرى يا بني تميم) . قالوا قد بشرتنا فأعطنا ، مرتين ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم يقبلها بنو تميم) . قالوا : قد قبلنا يا رسول الله! قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر قال : (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض) . فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها . [رواه البخاري] .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : تنبيه! وقع في بعض الكتب في هذا الحديث : كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث .

حصل زلزال ، من أحدث هذا الزلزال ؟ هذا الزلزال نتيجة اضطراب القشرة الأرضية ، من جعلها تضطرب ؟ الله هو الأول . لذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

بالمناسبة هذا المعنى له تطبيق رائع ، الإنسان أحياناً يُصاب بمصيبة ؛ فمن ضعف توحيده ، أو لضيق أفقه ، يصب جام غضبه على من جاءته هذه المصيبة على يديه ، لو تعقّل ، لو كان توحيده أقوى لرأى يد الله هي التي عملت في الخفاء ، لرأى يد الله فوق أيديهم .

لذلك ربنا عز وجل قال :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

أن تصبر على ما أصابك ، فإن ذلك من عزم الأمور ، هناك آية أخرى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

هذه اللام هي لام المزحلقة ، وهي لام التوكيد ، فهنا في الآية توكيد ، معنى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يعني قضاء وقدر جاء على يد إنسان ، الإنسان أحياناً ينقم على هذا الإنسان الذي أجرى الله على يديه هذه المصيبة .

فلو افترضنا ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أن طفلاً وقع من الشرفة ، نزل ميتاً ، الأب يتألم أشد الألم ، وقد يتفطر قلبه ، لكن يحقد على

من ؟ يقول : هذا قضاء وقدر ، أما لو أن سائقاً قتل طفلاً ، الأب في ساعة غفلة ، في ساعة غضب شديد ولنقص في توحيده يصب كل نقمته على هذا السائق ، إذا عرف أن الله هو الأول في كل حادث ، هو المسبب ، هو مسبب الأسباب ، طبعاً يأخذ حقه لكن لا يحقد ، لأن الحقد من لوازم الشرك .

هناك رجل يملك محلاً تجارياً ، اختلف مع أحد موظفي المحل ، هذا الموظف يعرف الدخائل والمخارج ، فأبلغ بعض الجهات عن بضاعة غير نظامية ، فضبطت المستودعات ، وكلف بمبلغ كبير جداً ، غرامة لهذه المخالفة الجمركية ، فصاحب هذا المحل ، بساعة من ساعات الغضب ، أخرج مسدساً وأطلق النار على هذا الموظف فأرداه قتيلاً فأودع في السجن ثلاثين عاماً ، لو كان موحداً لما رأى هذه المصيبة من هذا الشخص ، قد رأى يد الله فوق يديه ، وأن الله هو الأول ، هو مُسبب الأسباب ، ولعلَّ الله عز وجل يعوضه عن خسارته ، ولعل الخسارة وقعَت لذنب اقترفه .

الخلاصة أنّك إذا آمنت أن الله بيده كل شيء ، هو الأول ، لا تحقد على أحد ، كما لو أن إنساناً تلقى ضربةً بعصا ، فهل يحقد على العصا ؟ أم على الذي ضربه ؟ العصا لا تقدم ولا تؤخر ، ويجب أن تعلم أن الناس جميعاً ، حتى الأقوياء ، وحتى الأشرار إنما هم عصي بيد الله عز وجل ، ألم يقل الله عز وجل على لسان نبيه :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥-٥٦] .

وهذه الآية لها معنى دقيق جداً ، يعني إذا كانت مجموعة وحوش

كاسرة مربوطة بأزِمّةٍ بيد إنسان عظيم رحيم عادل منصف حكيم ، فأنت ينبغي أن تخاف من هذه الوحوش أم من الذي يملك ناصيتها ؟

المشكلة كلها في هذا المثل ، فالكافر المشرك ضعيف الإيمان يخاف من الوحوش ، والمؤمن يخاف من الذي يملك أزِمَّتها ، فإذا اصطلح معه أبعدها عنه ، أما إذا عصاه ، فسوف يرخي لها أزمتها وتصل إليه ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

هذه الآية في سورة الحديد : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] .

وقد يمكن أن نرد هذه الآية إلى المعنى الأول :

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة : ٦٠] .

يعني لم يسبقنا في الوجود أحد ، وما نحن بمسبوقين ، كان الله ولم يكن معه شيء ، وسيدنا الإمام علي كرم الله وجهه ، مرةً سئل : « متى كان الله ؟ » فأجاب إجابةً رائعة : « ومتى لم يكن » .

الأول بكل ما سواه ، المتقدم على كل ما عداه ، كل ما سوى الله يأتي بعد الله ، من دون الله ، هو الأول ، والمتقدم على كل ما عداه هذه الأولوية ليست بالمكان ولا بالزمان ، ولا بأي شيء في حدود العقل أو العلم .

يقول بعض العلماء : « الله سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً ، هو الأول أظهر من كل ظاهر ، لأن العقول تشهد أن المحدثات لها موجد متقدم عليها وهو سابق الوجود » .

فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة ، أنّ كل شيء حدث ، كل شيء محدَث له محدِث كل شيء موجود له موجد ، فمن

بديهيات العقل : أن الموجد قبل الموجود ، وأن المحدث قبل الحادث وأن الخالق قبل الخلق ، وأن المدبر قبل المدَبر وأن الرازق قبل الرزق .

وهو الأول أبطن من كل باطن ، لأنك إذا توغلت في الشيء وتوغلت فيه وتوغلت فيه إلخ . . . ، تصل إلى الله ، هو الأول أظهر من كل شي وهو الأول أبطن من أي شيء .

قال : كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود بعقلك وعلمك فيكون متناهياً ، فمثلاً ؛ نجمة تبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، مسافة بعيدة جداً نحتاج لقطعها في مركبة أرضية إلى خمسين مليون عام ، هناك نجم أبعد فنجد نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ، هناك نجم أبعد بعده عشرين مليار سنة ضوئية ، يا ترى هذه المجرة هي حدود الكون ؟ لا . . والشيء اللطيف أن هذه المجرة التي اكتشفت حديثاً ، والتي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، كانت في هذا المكان الذي وصل إلينا منه ضوؤها قبل عشرين مليار سنة ضوئية ، أين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الله .

يعني كل شيء نرصده بالمراصد فالمكان غير حقيقي ، مثلا مجرة كانت في مكان ، وأطلقت شعاعاً ، هذا الشعاع سار بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متراً ، وصل إلينا بعد عشرين مليار سنة ضوئية ، هذا النجم أين صار الآن ؟ هل تصدقون أن بعض المجرات سرعتها تقترب من سرعة الضوء ، سرعتها مئتان وأربعون ألف كيلو متراً في الثانية ، الضوء سرعته ثلاثمئة ألف ، فإذا كان هذا النجم تحرك بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متراً في الثانية ، وكان بهذا المكان قبل عشرين

مليار سنة ، فأين هو الآن ؟ أين حدود الكون ؟ مهما تخيلت الكون واتساعه ، فهو عقلاً محدود ، لماذا هو محدود لأنه من دون الله ، حادث ، والحادث متناه ، أما الله عز وجل فهو غير متناه .

هناك مشكلة هي اجتماعية ونفسية ودينية في آن واحد ، الإنسان يشعر بما يسمى سعادة ، أو يتوهم السعادة ما دام شاباً لأنه يتحرك نحو المجاهيل ، يريد شهادة عليا ، أخذ شهادة عليا ، أحاط بعلومها واستوعبها ثمّ سئِم منها ، بحث عن زوجة ، تزوج ، أنجب أولاداً ، اشترى بيتاً ، اشترى مركبة ، أكل ، تنزه ، فعل ، ثم شعر بالملل ، لماذا ؟ لأن النفس فطرها الله فطرةً عالية ، فطرها على أن تسعى للانهائي ، فإذا قبلت بالنهائي سئمت .

تجد حقيقةً أن الإنسان بعد الأربعين ، يغلب عليه السأم أكل أكلات طيبة حتى شبع ، تنزه ، وساح في العالم ، فلم يعد لديه شيء جديد ، كله مكرر ، صباحاً جلست للطعام ففوجئت بطعام لم تره من قبل وبطعام ما عرفته سابقاً ، وفي اليوم التالي كأس شاي ، قطعة جبن ، وبيض ، وفي آخر فول ومن بعده حمص ، وبعد ؟ فما هو الجديد في الطعام ؟ لم يعُد من جديد فهذه الخضر الموجودة ، والطبخ ، والفاكهة ، والسرير سرير ، والنوم نوم ، والأكل أكل يعني حياة رتيبة تنتهي إلى سأمٍ فهذه النفس البشرية ، بالأساس مخلوقة على أن تتجه إلى المطلق ، فإذا قنعت بالمقيد فلن ترضى فهي أكبر من كل قيد لذلك تشعر بالسأم .

وإذا كـانـت النفـوس كبـاراً تعبـت فـي مـرادهـا الأجسـام

مثل بسيط : إنسان ذو طاقات كبيرة جداً ، ضعه في مكان بلا

عمل يتضجر ويتمزّق ، طاقته كبيرة والعمل محدود ، أما لما يلتجىء الإنسان إلى الله ، فإن السأم يتبدّد لأن الله عظيم ، لا نهائي ، لذلك أنا أقول وأنا أصر على ما أقول ، المؤمن لا يشيخ إطلاقاً ، شاب دائماً ، ما هو الشباب ؟ الشباب أن تكون أهدافك أكبر من حياتك ، أن تكون أهدافك نبيلة تضيق بها حياتك ، فأنت في شباب دائم ، أما إذا كانت أهدافك كلها مادية ، الأشياء المادية محدودة ، أنت أكبر من المادة .

فلذلك منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال . لذلك إذا أردت ألا تشيخ وألا تهرم وأن تكون في شباب دائم فاتجه إلى الله ، واجعل الله عز وجل مقصودك ، ورضاه مطلوبك ، اجعل هدفك الآخرة فأنت في شباب دائم ومتجدد .

حتى الناجحون في حياتهم حتى الأعلام المتألقون ، في الصناعة في التجارة في العلوم في مراكز القوى أي إنسان متألق ما دام حياً فأهدافه المادية أصغر من طاقته الكبرى ، فالإنسان الوحيد الذي يسعد طوال حياته هو إنسان اتجه إلى الله ، الله لا نهائي .

قال بعض العلماء : « الأول في وصفه تعالى بمعنى القديم الأزلي لا ابتداء له » وقيل : « الأول بلا ابتداء الموجود بذاته قبل وجود مخلوقاته وكان الأول لأنه كان موجوداً ولا شيء معه » ، يعني مهما أوغلت في القدم ، مثلاً نحن نعيش في القرن الواحد والعشرين ، توغل في القرن العشرين ، القرن التاسع عشر ، الثامن عشر ، السابع عشر ، السادس عشر ، الخامس عشر ، الرابع عشر القرن السابع الثالث الثاني الأول ما قبل التاريخ إلى نشوء العالم ، أين تصل ؟ إلى الله هو الأول ، هو الذي أنشأ العالم ، كان الله ولم يكن معه شيء .

تحرك نحو المستقبل ، القرن الواحد والعشرين ، عام ألفين وعام ثلاثة آلاف ، عام خمسين ألف .

قَالَ أَبُو حَازِمٍ سَمِعْتُهُ مِنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ** » وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى . [صحيح البخاري] .

لو انتهت الحياة الدنيا ، ماذا بعد الحياة الدنيا ؟ الله ، هو الأول والآخر ، لو تحركت نحو الماضي الله هو الأول نحو المبتقبل الله هو الآخر .

قال أما الآخر فهو الباقي سبحانه ، معنى الآخر أي الباقي بعد فناء خلقه ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الإنسان العاقل يربط مصيره بمصير الأزلي الأبدي ، الباقي الآخر أما لو ربط مصيره بأي شيء آخر فإن هذا الشيء الآخر سيفنى .

قال العلماء : الآخر هو الباقي بعد فناء خلقه ، يعني الإنسان يعيش ويتعلم يكسب المال ، يسكن ويأكل ويتحرك ويسافر ووو . . . ثم تُكتب نعوته ، ثم يُوضع في القبر وهو صندوق العمل .

قال بعضهم : الآخر الدائم بلا نهاية ، عندنا قلق عميق ، فالإنسان قد تكون حياته منتظمة ، حقق نجاحات في حياته ، هناك موت ، هناك نهاية لهذا النجاح ، لكن كل عصر له تجار وصناع وموظفون وأقوياء وأغنياء وأذكياء عاشوا ترفهوا أكلوا شربوا تمتعوا ثم طواهم الردى .

قف أمام سوق الحميدية ، وعُدْ بذاكرتك إلى المحالِّ التي على الصفين قبل ستين عاماً فكل أصحاب هذه المحالِّ لم يكونوا في هذه

المحالّ قبل ستّين سنة ، وبعد ستين عاماً في الأعم الأغلب هناك عدد آخر من الناس في هذه المحالّ ، البيوت المتنزهات المدن الساحلية ، كان فيها الرومان ، قبلهم الآشوريون الآراميون ، بعدهم العرب المسلمون ، جاء الصليبيون ، جاء المسلمون ما لانهاية ، الله هو الآخر .

قال العلماء : من أدب المؤمن مع هذا الاسم الآخر ، أن يُكثر من ذكر هذا الاسم حتى يتجلى لقلبه نور الظاهر ، وأن يفر من دار الفناء إلى دار البقاء .

رثى أبو البقاء الرندي مملكة الأندلس فقال :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

دعا بعضهم فقال : إلهي أنت الآخر لك البقاء ، وأنت الدائم والجموع هباء ، فاجعل لنا قسطاً من نور اسمك الآخر ، فيحيي به الظواهر والسرائر فلا نشهد إلا الباقي بالباقي ، ولا نصل إلا إلى مقام العالي الراقي .

إمام كبير له في اسم الأول والآخر ، تعليقات لطيفة جداً .

تقول فلان أول من فلان ، دائماً الأول فيه تفضيل ، فلان أول بالنسبة إلى إنسان آخر ، هذا المعدن أول رتبةً ، الذهب قبل الحديد من حيث القيمة ، دائماً أول فيه تقدم وعلو ومن كلمة أول له فضيلة ، كان أولاً عليه ، يعني سابقاً له .

يقول أحد العلماء : « **اعلم أن الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء**

والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء ، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً جميعاً » .

ليس من المعقول أن تكون هذه اليد قبل الكأس ، هي يد واحدة ، وتكون بعدها أيضاً فهذا شيء خلاف المنطق ، شيء مضاف إلى شيء ، وهذا الشيء نفسه مضاف إلى شيء آخر ، إلى الشيء نفسه ، الأول مضاف أول ، والثاني مضاف آخر ، هناك تناقض عقلي ، حل هذا الإشكال على النحو التالي ؛ قال هما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً ، يعني هذا المسجد هناك في الجهة الشرقية شجرة ، هي قبله ، هي نفسها أيمكن أن تكون بعده ؟ مستحيل هذا يتناقض مع مبدأ الهوية بالمنطق ! شجرة واحدة أول وآخر لا يصح .

فما دام الأول يجب أن يضاف إلى شيء ، والآخر يجب أن يضاف إلى شي فينبغي أن يكون هذا الشيء شيئين ، الأول بالنسبة لكذا وآخر بالنسبة لذلك .

ممكن أن نقول هذا الكأس قبل الكتاب وهذا الشريط بعد الكتاب ، أما هذا الكأس قبل الكتاب وقبل الشريط فهو ممكن ، فإذا اختلف المضاف إليه ممكن أن نجمع بين الأول والآخر ، الكأس بعد الشريط وقبل الكتاب واحد ، أما شيء واحد مضاف مرةً إضافة أولوية ومرة أخروية لمضاف إليه واحد فهذا الشيء يرفضه العقل .

قالوا : إذا نظرت إلى تركيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المرتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول ، إذا نظرت إلى الموجودات الله

تعالى أول الموجودات ، إذ الموجودات كلها استفادت الوجود منه ، فالله أوجدها ، فهو أول وأما هو فموجود لذاته ، وما استفاد الوجود من غيره ، الله عز وجل وجوده ذاتي ، أما وجود الكون كله فيستفاد من وجود الله عز وجل ، فالوجود ليس ذاتياً ، وجود معلول بالموجب أما الله عز وجل ، وجوده ذاتي .

فهناك أحداث ومسالك ، فهو آخر ، في نهاية المطاف تجد الله أمامك ، إذا أضفنا إلى الموجودات فهو الأول أما إذا أضفنا إلى الحركة فهو الآخر ، نهاية المطاف ، نهاية السعي ، نهاية الحياة ، نهاية كل عمل الله جل جلاله .

إذ هو آخر ما يرتقي إليه العارفون ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته ، لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد . مهما تعلمت مهما درست ، نهاية النهاية التوحيد ، وأعلى مرتبة علمية أن تعرف الله فهو آخر بالإضافة إلى السلوك ، بالإضافة إلى الموجودات فهو أول ، منه المبدأ أولاً وإليه المرجع والمصير آخراً .

هذا المعنى له علاقة بحياتنا ، والإنسان فيهما ، سافر وتاجر وجمع مالاً ، أسس أعمالاً ، ونجح ، وتألق مصيره إلى الله :

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٥] .

اذهب أين شئت :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

هو الآخر ، يجوز أن تركن إلى إنسان ، تركن إلى جهة ، تركن

إلى جماعة ، تركن إلى مالك تركن إلى قوتك ، في النهاية أنت مع الله ، مصيرك إليه .

عالم جليل يقول : « **الأول في وصفه القديم الأزلي ، الذي لا ابتداء له ، والآخر في وصفه بمعنى لا انتهاء له ، ولا انقضاء لوجوده هو الأول بإحسانه ، والآخر بغفرانه ، الأول بالهداية ، والآخر بالرعاية** » .

الإمام الرازي يقول : « **الأول والآخر ؛ فذكر عدة عبارات منها : الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، الأول لعرفان القلوب ، والآخر لستر العيوب ، الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، الأول قبل كل شيء بالقدم والأزلية ، والآخر بعد كل شيء بالأبدية والسرمدية ، الأول مبدي كل أول ، والآخر مؤخر كل آخر ، الأول بالوجود والقدم ، والآخر للتوجيه عن الفناء والعدم** » .

يعني أينما ذهبت أوغلت في القدم فهو الأول ، وأينما سعيت وتحركت وطرت وغصت وسافرت وتخطيت فهو الآخر ، الإنسان أين ومتى مات فمصيره إلى الله .

الأول بالخلق ، والآخر للرزق ، الأول بلا مطلع ، والآخر بلا مقطع ، الأول هو الذي ابتدأ بالإحسان ، والآخر هو الذي تفضل بالغفران ، هذه كلها معان فرعية تستفاد من الأول والآخر .

أما أدب المؤمن مع الأول ، وأن يكون أول الناس سبقاً بالخير ، كن أول الناس بمعرفة الله ، كن أولهم بطاعته ، كن أولهم بخدمة عباده وآخرهم تعلقاً بهم .

ومن الناس من يدعو الله بقوله : « **يا كائناً قبل أن يكون شيء ،**

والمكون لكل شيء ، والكائن بعد ما لا يكون شيء أسألك بلحظة من لحظاتك الحافظات الغافرات الواجبات المنجيات » .

لحظة من لحظات الله الحافظات الغافرات الراجيات والمنجيات ، الإنسان يكون في مجتمعه ملء السمع والبصر ثم بلحظة واحدة يصبح خبراً .

عود على بدء ، يجب أن نذكر بعض أسماء الله الحُسنى مثنى مثنى ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

أحياناً الله عز وجل يفقر ليغني ، يُذِلُّ ليتوب المرء من ذنوبه ثم يعزه أعلى أنواع العز ، يفقره ليغنيه ، يحجبه ليقربه ، أحياناً يهينه ليعلي مقامه ، الإنسان المؤمن صابر على قضاء الله وقدره ، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيء في الحقيقة خير ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

دققوا في كلمتي ، (إن يمسسك-) و(إن يردْك) ، ما الفرق بينهما ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، لماذا جاء مع الخير الإرادة ، ومع الشر الإمساس ، لأن الله عز وجل لا يريد إلا الخير ، فإذا أنزل ضراً بإنسان فهذا الضر ليس مراده ولكنه لا بد منه أحياناً الابن غال جداً على والده ، لكن في بعض الحالات النادرة يجد أنه لابد من تأديب هذا الغلام فيضربه وربما يتألم الأب أشد من تألم الابن بالضرب ، لكن لا بد منه ، فالضرب ليس مقصوداً ، المقصود التربية ، الضر ليس مراداً ، لكنه لا بد منه .

مركبة صنعت فمن أجل ماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير ، أليس

فيها مكابح ؟ المكابح تتناقض مع الهدف من صناعتها ، صنعت لتسير وفيها مكابح ! لكن المكابح ضرورية لسلامتها ، الإنسان خلق ليسعد ، لكن المصائب والآلام كالمكابح تماماً ضرورية لسلامته قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة : ٢١]

لو أدرك الإنسان أن كل شيء يبدو له شراً هو خير مبطن وأن وراءه هدف كبير لذابت نفسه محبةً لله عز وجل ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام « إذا رأى ما يحب ، قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكرهه قال : الحمد لله على كل حال » ، ودائماً حسن الظن بالله ثمن الجنة .

* * *